دراسة حول الاستعارات المعرفية في نهج البلاغة
(الدنيا والآخرة نموذجاً)

الباحث. مهرى قادرى بيباك

د. سيد اكبر غضنفرى د. محمد جنتى فر

قسم اللغة العربية وآدابها/ جامعة آزاد الاسلامية في قم/ ايران

The Investigation and Analysis of Nahj al-Balaqeh's cognitive metaphors in the world and the hereafter

Researcher. Mehri Kady BIPAC

Dr. Seyed Akbar Ghadnafri d. Mohamed Genti Far

Department of Arabic Language and Literature\ Azad Islamic University in Qom\ Iran

Abstract:

Cognitive metaphor is one of the linguistic methods for expressing a specific concept through other concepts; Most of the times, when we use abstract concepts for understanding and introducing specific concept we need similes, allegories, metaphors and imagery therefore the desired meaning gets tangible for understanding. Using these methods in new linguistics is defined as conceptual or cognitive metaphor. For introducing or referring to an abstract subject as a metaphor's destination, tangible, objective or substantive concepts are used as origin concepts and transferring the concept from origin to destination is called mapping so that the origin concept goes beyond its verbal meaning, includes a new concept and gives it its meaning.

Nahj-al-Balageh, as one of the most important sources of Amir-al-Muminin's words, is full of cognitive metaphors. This study, by applying descriptive analytical method, investigates cognitive metaphors that are related to speech of the world and the hereafter and analyses conceptual areas of journey and home for discoursing on the world and the hereafter (as concept of destination). Imam Ali (upon him prayer and peace) has introduced the world and the hereafter by using concepts related to journey's concept and expressions of allegory and simile, also he has forbidden human to be deceived by the world and encouraged to turn to the hereafter.

Keywords: Nahj al-Balagha, metaphorical metaphors, linguistic metaphor, the world and the hereafter, the semantic field of travel.

الملخص

في ميدان علوم الإنسانيات بدا كتاب "الاستعارات التي نحيا بها" لجورج لاكوف ومارك جانسون (Lakoff and Johnson 1980) ثورة كبرى في رؤية استعارة وآليتها ودورها الجوهري في كثير من أمور حياتنا تعد الاستعارة المعرفية من الفنون اللسانية المستخدمة للتعبير عن المفاهيم الخاصة عبر توظيف مفاهيم مستلة من حقول دلالية أخري. لقد حظيت الاستعارة المفهومية بحضور لافت واهتم بها كثير من الدارسين والنقاد القدامى والمعاصرين، ذلك لأن الاستعارة المفهومية ركن أساس من أركان أىّ دراسات لسانية، والوسيلة الأولى للأديب التى يستعين بها في صياغة تجربته الإبداعية.

توظيف هذا الفن يندرج تحت الاستعارة المعرفية أو الدلالية في اللسانيات الجديدة. ويعتبر كتاب نهج البلاغة كأهمّ مصدر لكلام الإمام على (ع) حافل بالاستعارات المعرفية. أما هذا البحث يدرس الاستعارة المعرفية في حقل الدنيا والآخرة متخذاً المنهج التحليلي الوصفي كما يقوم البحث بتحليل مفاهيم السفر كحقل المبدأ الدلالي للحديث عن الدنيا والآخرة كحقل المقصد الدلالي. إن الإمام على (ع) وظَّف حقل السفر الدلالي وباستخدام الفنون البيانية كالتمثيل والتشبيه للتعريف بالدنيا والآخرة وقد حذّر الإنسان من الإفتتان بالدنيا ومرغّباً إيّاه في الآخرة.

الكلمات المفتاحية: نهج البلاغة، الاستعارة المعرفية، الاستعارة اللسانية، الدنيا والآخرة، حقل السفر الدلالي.

المقدمة

اللغة أداة للكشف عن بناء النظام المعرفي للإنسان؛ هذه رؤية يتبنّاها علم اللسانيات المعرفي. ويري اللغويون الاستعارة[1] ظاهرة معرفية[2] على أن كل ما يظهر في اللغة ما هو إلا تجسيم لهذه الظاهرة المعرفية. فأيّ فهمٍ أو تعبير ينطلق كما يري هؤلاء العلماء من التصورات الملموسة لتصوير المفاهيم المجردة، هو استعارة بحد ذاتها. قبل تكوين اللسانيات المعرفية[3] كان يري اللسانيون أن الاستعارة أداة لمعالجة الخيال الشعري ولذلك غالباً ما كانوا يرونها مفهوماً أدبياً ويعتبرونها من متعلقات اللغة. لكن مع توسيع الأنماط المعرفية، بدأ الالتفات لهذا المفهوم في الخطاب اليومي لدي اللغويين «عندما نفكر أن الأفلاك رتّبت على بعضها كطبقات البسل، نقصد بهذه الاستعارة أن نصف العالم. الآن حينما نتكلم عن البروتون والاكترون، أيضاً لغتنا هي الاستعارة. فلغتنا العادية التي نعبّر بها عن العالم، مليئة بالاستعارات» (يارمحمدي، 184:1383).

اللسانيات المعرفية التى بدأت تظهر بقوة وشمول من السبعينات قد سيطرت على النظريات اللسانية وما لبث أن تسرب في العلوم المختلفة وفروع متنوعة من الفلسفة، وعلم النفس وعلم الاجتماع والنقد الأدبي و...الاستعارة المفهومية من أبرز واهم المباحث في علم الدلالة المعرفي وهي نزعة تجر يبية.

قد يكون أفضل توظيف للاستعارة المعرفية[4] أن تُقرّب للأذهان المعاني المجردة والانتزاعية عبر استخدام التعابير والألفاظ الملموسة والمفاهيم الحسية. إن هذا الأمر يبدو ضرورياً عندما يكون الكلام في معرض القضايا المرتبطة بأمور الدين والغيب؛ حيث نري أن البيان القرآني والحديث الشريف يحفلان بالتمثيلات والتعابير المصطلحة المتنوعة لتقريب المفاهيم العالية لذهن الإنسان. تتضمن النصوص الدينية مفاهيم تجريدية[5] كثيرة لا يمكن التعبير عنها الا عبر الاستعارة المعرفية؛ كالغيب، والآخرة، والقيامة، والدنيا، والإيمان و... .

يشتمل كتاب نهج البلاغه على كلام الامام علي(ع) من خطب ورسائل وكلمات قصار ويتضمن هذا الكلام قسطاً وافراً من هذه المفاهيم يكشف عنها بالنظر الدقيق، تفسير القرآن ووحيه.

فيعد كتاب نهج البلاغة من أقدم النصوص العربية الإسلامية النثرية التي جاءت معبرة عن رؤية شاملة عميقة للعالم وعلاقاته ، بما فيها علاقة الإنسان بربه وبالآخرين، وقد يعد هذا الكتاب من الناحية الفنية من النصوص العبقرية التي جمعت عمق المضمون وجمال الشكل في كلّ ما ورد فيه من أنواع نثرية خطبا ورسائل وحكَما. ولعلّ هذه المزية المهمة جعلت نهج البلاغة ميدانا خص بالدراسات الأكاديمية، اللغوية منها والبلاغية والأسلوبية، إلا أنني وجدت الدراسات اللغوية تجزئ النص وتحلل بناءه إلى جزئيات توصف في ضمن مستوى معين من مستويات النص من دون إعادة تركيبها مع المستويات الأخرى، لأنّها غير معنية بذلك، ولهذا تبقى هذه الدراسات ضمن التوجهات التي تعنى بالجانب الشكلي البنيوي وحده من دون النظر إلى تكامل العمل أو كليته، عندها يجب أن ينظر إلى النص بوصفه موضوعا (استاطيقيا) تكون له دلالة وقيمة كامنة فيه، ناتجة من مجموع تفاعل مستوياته المختلفة.

إن الدراسات التي تشير عنواناتها إلى دراسة "بلاغة" نهج البلاغة، فإنها . في الأعم الأغلب . اتخذت منهجا شكليا صوريا يميل إلى رؤية النص الأدبي بأنه ظاهرة عقلية، يمكن أن يدرس بوصفه نظاما مستقلا لاتعنى بالوظائف الدلالية والجمالية والتواصلية للنص الأدبي، وإن ما اقتفت بعض الدراسات الأكاديمية خطى البلاغة العربية القديمة في هيكليتها وبنائها المعرفي، فقسمت فنون نهج البلاغة بحسب التقسيمات البلاغية ورؤى أصحابها، ولاسيما فن البديع، لذا كادت تكون نتائج هذه الدراسات مكررة لما قاله القدماء ، وربما توهم

1 . Metaphor
2 . Cognition
3 . Cognitive Linguistics
4 . Cognitive Metaphor
5 . Abstract Concepts

بعضهم أنه حين يستبدل أمثلة التقسيمات البلاغية بنصوص من النهج، يكون قد درس النص وكشف أسراره وأضاء جوانبه الدلالية والجمالية.

لاشك ان المفاهيم المجردة لا يمكن التعبير عنها باللغة اليومية لذلك لابدّ من توظيف الادوات اللسانية لتقريب هذه المواضيع إلى الاذهان. يسعي هذا البحث عبر المنهج التحليلي– الوصفي إلى دراسة وظيفة الاستعارة العربية في نهج البلاغة من خلال الحديث عن الدنيا والاخرة فيما يخص تشبيه الدنيا بالسفر كما يقوم بمعالجة العلاقات بين الحقول الدلالية[1] المجردة والاستعارات التي جاءت لتجسيم وتصوير هذه المفاهيم المجردة عبر المفاهيم الموضوعية والمحسوسة.

أسئلة البحث

يرمي البحث إلى الإجابة عن الأسئلة التالية:

ماهي كيفية العلاقة بين الحقول الدلالية في معرض الكلام عن الدنيا والآخرة فيما يخص تشبيههما بالسفر؟

كيف جاءت الاستعارات المعرفية عن الدنيا والآخرة بتوظيف حقل السفر الدلالي

الفرضيات

أمّا فرضيات البحث فهي:

– ان الامام علي(ع) كأعظم خطيب، استخدم في بيانه البليغ، المفاهيم المجردة المتنوعة التي تناسب الرسالة الاسلامية، ومن اهم تلك المفاهيم، موضوع الدنيا والآخرة. ان التعبير عن هذه المفاهيم يتضمن توظيف الاستعارات المعرفية واستخدام الأمثلة الحسية كي يعرّف المفاهيم المعقدة المجردة على نحو بسيط بين يدي المخاطب وفي هذا المضمار جاء بالفنون البيانية كالتمثيل والتشبيه من حقل السفر الدلالي وذلك لعرض النصائح والتعريف بطبيعة الدنيا والأخرة.

– إن حياة الانسان في هذه الدنيا _ في التصور الاسلامي _ مؤقتة والغاية النهائية هى موجودة في الأخرة ودار القرار، فلهذا ورد قسم من المواعظ والحكم في نهج البلاغة عبر مفاهيم السفر والمنزل المؤقت والمنزل الأبدي لذلك حض المؤمنين على الاهتمام الأوفى بالأخرة.

خلفية البحث

هنالك دراسات تناولت نهج البلاغة من جهات متعددة وقد نشر بحث عنه في مجال الاستعارة المعرفية عنوانه «الاستعارات العربية الاتجاهية في نهج البلاغة» كتبه حسين ايمانيان وزهرة نادري ونُشر البحث في فصلية بحوث نهج البلاغة المحكة رقم 4 شتاء عام 1392ش. كما يظهر من العنوان تناول البحث الاستعارات الاتجاهية.

فيما يتعلق مع بحثنا هذا هناك مقال عنوانه "الاستعارات المفهومية في القرآن من منظور اللسانيات المعرفية" كتبه حسين هوشنگي ونشر في مجلة بحوث القرآن رقم 3 صيف 1388 وقد تناول الحقول الدلالية الخاصة بالاستعارات في القرآن الكريم.

الاستعارة المعرفية

بعيداً عن آراء القدماء عن الاستعارة الذين ساروا على نهج أرسطو قائلين أن الاستعارات توظّف للتنميق الادبي وقد درسوها في مجال العلوم البلاغية، الا أن هذه المقولة اصبحت محط النظر الفروع العلمية المختلفة خاصة تلك التي تتعلق بالمدرسة المعرفية وقد جاء في هذه الاطار كتب ومقالات منوعة.

أمّا مصطلح الدلالة المعرفية والذي يعتبر من اتجاهات علم الدلالة فجاء به لأول مرة "جرج لايكوف". وفقا لهذا الاتجاه إن علم اللغة الانساني لا يستقل عن الفكر والمعرفة (صفوي، 1382:66و65).

1 . conceptual Areas

جورج لايكوف ومارك جونسون في كتاب «الاستعارات التي نحيي بها» فتحا نافذة جديدة في دراسات الاستعارة. يري الكاتبان أن النظام المفهومي في نهج الانسان والذي يقوم عليه فكر الانسان وتصرفاته، له ماهية استعارية في ذاته (فياضي وآخرون،1387- 91).

إن نظريه لايكوف وجانسون تبتني على فرضيتين: الأولي هي أن الاستعارة لا تقتصر على اللغة الأدبية بل يجري نفوذها حتي في اللغة اليومية. والثانية هي أن للاستعارة جذور في النظام المفهومي للغة وفي الواقع هي لا تمثل ظاهرة لسانية بل تتمثل في اللغة بذاتها. ويأتي لايكوف وجونسون في كتابهما "الاستعارات التي نحيا بها" بأمثلة من الحياة اليومية التى سأشير إلى نبذة منها (لايكوف وجانسون،71:2009):

- كان موتُ أمِّه ضربةٌ قاسية
- لا أريد أن ترحل البسمة عنك
- إنه يطفح بالحيوية

في نفس السياق يعبّر «بول ريكور» عن الاستعارة بأنها اسلوب وأداة تظهر من خلالها معان جديدة في اللغة. وسياق آراء بعض المعاصرين يشكك في جميع فرضيات البلاغة القديمة ويصوغ بنظرية جديدة عن الاستعارة. مفادها: أنّ «الاستعارة ليست اداة لتنميق الكلام فحسب بل هي كأسلوب يأتي بمعان جديدة في اللغة» إجمالاً ومن مجموع آرا ريكور نخلص نتيجتين: الأولي هي أن الاستعارة بمعناها الحقيقي _ ولا بمعني استبدال لفظ مكان لفظ_ غير قابلة للترجمة، لأن الاستعارة هي التي تصنع المعني. والثانية هي أن الاستعارة ليست اداة لتنميق الكلام فحسب بل تتضمن على وعي جديد وأساليب جديدة للكلام من واقعية الحياة (نقوي، 1368: 83-84).

إذن تعتبر الاستعارة الحالة الرئيسية للغة المجازية. اللغة المجازية هي اللغة التي لا تقصد مفرادتها وظواهرها، وعندما ترتبط التعبيرات الحقيقية بشيءٍ آخر يمكن انتقالها إلى معان أخري، هذا التغيير يأخذ حالة الانتقال وغايته الحصول على معني جديد، أوسع، خاص، وأدقّ.

إن الذي يحصل في الاستعارة المعرفية هو الانتقال بين حقلين دلالين؛ أي اذا اعتبرنا المكونات المفهومية في حقل ما مجموعة بعينها والمكونات المفهومية في حقل آخر مجموعة اخري، تحصل هناك تبادل بينهما، فتنتقل المفاهيم من حقل المبداء إلى حقل المقصد الدلالي (هوشنگي وسيفي پرگو،14:1388). الاستعارة هي نوع من الإسقاط المفهومي التي تشمل انواع من الانتقال أو التناظر بين الحقول الدلالية المختلفة (اونزي، 136:2007). كما يبدو من هذا التعريف، أن الاستعارة تقيم نوع من العلاقَة بين الحقول الدلالية المختلفة وهذه العلاقة تسمي انتقال (أو اسقاط) وهذا ما يوفر لنا امكانية الفهم وتلقي المفاهيم في حقل خاص عبر الاستخدام حقل دلالي آخر (خاقاني وقربان خاني، 1394 :107).

علي رأي "لي" «الاستعارة في الاساس هي اداة أو فن يقوم بنقل التجارب من حقل مفهومي عبر اطار حقل دلالي آخر». (6:2001). إن ما يلفت النظر في هذه العلاقة هي أن الحقول الدلالية المشاركة في إنشاء الاستعارة لا تكون غالباً من نمط واحد ويختلف مستوي تجردها في مقارنة بعضها ببعض. لذا حقل المبدأ، الذي يبدأ الانتقال منه غالباً ما يكون حسياً، وفي جانب آخر، إن حقل المقصد الذي يتم الانتقال اليه عادة ما يكون مجرداً (تيلور 1995 وتندال، 2009). الاستعارة أسلوب يؤدي إلى توسيع وبسط فهمنا وإدراكنا والسبب هو ان المفاهيم الرئيسية وإن كانت حصيلة التجارب المادية المباشرة، لكن المفاهيم غير الرئيسية والتي لم تكن حصيلة هذه التجارب، يتم انتاجها كاستعارات عبر المنهج الدلالي والتي لها علاقات مع تلك المفاهيم الرئيسية الذاتية (شابيرو، 2011). النقطة التي يجب الانتباه لها في هذا المجال هي أن في اللسانيات المعرفية، الاستعارة كالظواهر الدالة الأخرى لها علاقه وطيدة بالتجارب الملموسة والحسية وكما يقول "اوانرو غرين" (286:2001): «إن نظرية الاستعارة الدلالية لها علاقة مباشرة مع فرضيتين رئيسيتين من فرضيات علم الدلالة المعرفي:

1- المعرفة المجسمة التي تعرف التجربة الملموسة أو الحسية كمنطلق لبناء الاستعارة المعرفية.

2- إن البناء الدلالي صدي للبناء المفاهيمي».

علي هذ الأساس يمكننا القول أن ترتيب الاستعارات في أنماط اللسانيات المعرفية يتعلق بمستوي التجارب الحسية والذاتية ولا أثر لأي مؤشر صوري أو غير تطبيقي في هذا الأمر.

كما ورد فى اللسانيات يمكننا القول أن التعبيرات الاستعارية تشمل جميع الفنون المذكورة في قسم البيان من علم البلاغة التقليدي كالتشبيه، والاستعارة والكناية والمجاز ونظاير هذه المصطلحات (يارمحمدي،164:1372). على هذا فإن الاستعارة المعرفية تشمل أيضاً جميع فنون البيان المذكورة فى البلاغة الغربية.

في الاستعارة المعرفية دائماً ما يعرّف أمرٌ مجرد أو غير معروف كمقصد للاستعارة عبر أمر معروف وحسي كمبدأ للاستعارة. من البديهي أن الانتقال الاستعاري في هذا التعريف لا يمكن أن يكون عكسياً؛ أي لا يمكن الاطلاع على المفهوم الحسّي عبر المفاهيم المجردة وهذا اصلٌ في اللسانيات المعرفي يسمي «مبدأ أحادية الاتجاه للانتقال الاستعاري» وعليه لا يمكن لأجزاء الاستعارة أن تصبح معكوسة فدائماً ما يكون حقل المبدأ أكثر تعريفاً ومن قبيل الأمور الحسية وحقل المقصد دائماً ما يكون مجرداً أو مجهولاً تقريباً (هوشنگي وسيفي پرگو:15:1388).

إن مفهومَي الدنيا والآخرة من المفاهيم المجردة ولابد لنا إذا _ أردنا أن ندرجها فى كلامنا من منظور ديني _ أن نستخدم بعض الاستعارات لتعميق الدلالة في وجدان المتلقي. فيما يلي نتناول الحقول الدلالية التي استخدمت في الإشارة إلى الدنيا والآخرة في نهج البلاغة:

الاستعارة المعرفية في نهج البلاغة

نستجلي مما سبق أن المفاهيم المجردة يتم تنظيمها وترتيبها في ذهن الانسان عبر الأمور العينية والحسية وهذه المهمة تتم عبر استخدام اداة اللغة في مجال بيان المفاهيم المعرفية والتي تُعرف بالاستعارة المعرفية. فقد تمكن الإمام على (ع) من تكوين علاقة بين الحقول الدلالية المختلفة عبر استخدام هذه الأداة وإفادة المخاطب بالمفاهيم المقصودة.

فيما يلي نتناول حقل السفر الدلالي كمنطلق وحقل دلالي مبدأ للتعبير عن الدنيا والآخرة ومن ثمّ نقوم بتحليل العلاقات الموجودة بين حقلَي المبدأ والمقصد.

حقل السفر الدلالي

من المفاهيم التي يكثر استخدامها عند الحديث عن الدنيا والآخرة هي: «أن عمر الإنسان ليس إلا سفر وأن الدنيا منزل من منازل هذا السفر». هذا التعبير أصبح مبدأً لاستعارات متعددة في حقل السفر الدلالي وملزوماته نشير إلى بعضها في نهج البلاغة المتضمن لكلام الإمام على (ع).

يقول الإمام على (ع) في خطبة 160 ذاكراً خصائص النبي (ص): «خَرَجَ مِنَ الدُّنيا خَمِيصاً وَوَرَدَ الْآخِرَةَ سَلِيماً».

يصوِّر الإمام الخروج من الدنيا والدخول في الآخرة وكأنه سفر، تقوم هذه الاستعارة على اساس التعبير القائل أن «الحياة سفر» حيث تشمل دلالات؛ منها الخروج والانتقال كما اشار الإمام إلى حالة المسافر؛ أي أنه خميص البطن عند الذهاب إلى الآخرة. الحقل المبدأ هنا هو السفر وقد أشار إليه بلفظتي «خرج» و«ورد» وحقل المقصد هو الانتقال من الدنيا إلى الآخرة. وهذا في حكمة له (ع) حيث يقول: «إِنَّ أَخْسَرَ النَّاسِ صَفْقَةً وَأَخْيَبَهُمْ سَعْياً رَجُلٌ أَخْلَقَ بَدَنَهُ فِي طَلَبِ مَالِهِ وَلَمْ تُسَاعِدْهُ الْمَقَادِيرُ عَلَى إِرَادَتِهِ فَخَرَجَ مِنَ الدُّنيا بِحَسْرَتِهِ وَقَدِمَ عَلَى الْآخِرَةِ بِتَبِعَتِهِ».(نهج البلاغة، الحكمة رقم: 430)

في هذه الفقرات استخدم الإمام عدة حقول دلالية للوعظ؛ منها الدلالة التي تشير إلى الخروج من الدنيا والوفود على الآخرة، حيث استخدم فيها دلالة السفر عندما قال: «خَرَجَ مِنَ الدُّنيا بِحَسْرَتِهِ وَقَدِمَ عَلَى الْآخِرَةِ» فقد جاء بدلالات ومفاهيم لها علاقة بالسفر وتنقل دلالتها إلى مفهومَي الدنيا والآخرة.

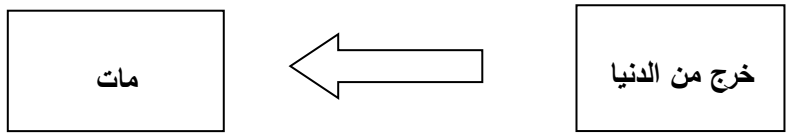

في خطبة 99 وظَّف الإمام (ع) دلالات مختلفة ترتبط بالسفر عندما يقول: «فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهَا كَسَفْرٍ سَلَكُوا سَبِيلًا فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ وَأَمُّوا عَلَماً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوهُ وَكَمْ عَسَى الْمُجْرِي إِلَى الْغَايَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا حَتَّى يَبْلُغَهَا».

في هذا المقطع يصف الإمام الدنيا عبر المفاهيم المرتبطة بالسفر فيشبه الانسان بمسافر لا يدرك إلى الغاية المنشودة وإن كان متطلعاً إليها. إنّ الألفاظ التي جلبها الإمام على (ع) من حقل السفر والتي تمثل حقل المبدأ هي: «السفر، سبيل، قطعوا، أمُّوا علماً، بلغوه، الغاية ويبلغها» وكلها تقع في حقل السفر الدلالي؛ أما الحقل المقصد كما يبدو من سياق العبارات هو الرحلة من الدنيا نحو الآخرة.

في خطبة 176 يشبه الإمام (ع) الإنسان في حياته بمسافر ويقول: «كُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ والْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ قَوَّضُوا مِنَ الدُّنيا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ وَطَوَوْهَا طَيَّ الْمَنَازِلِ».

في هذا المقطع إذ يؤكد الإمام على الزهد في الدنيا، يشبه السابقين بمسافرين قضوا فترة مؤقتة في هذا المنزل وأقاموا خيامهم ثم طووها كالمسافر ورحلوا إلى منزل آخر وهو الآخرة.

فالاستعارات المعرفية المستخدمة هنا للإشارة إلى الدنيا هي: «التقويض، الراحل، قوَّضوا، طي ومنازل» وهي عبارات مختزلة من حقل السفر الدلالي والتي تمثل الحقل المبدأ للتعبير عن الدنيا كمقصد وبناءها النظري على أساسا أنّ «ليس العمر إلا سفر».

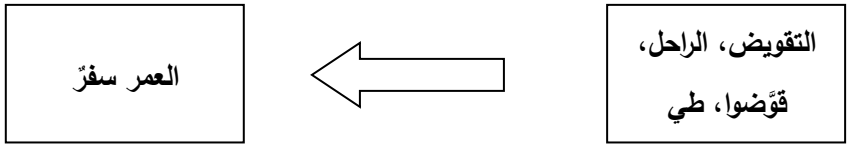

في خطبة 222 يصف الإمام بأنهم: «يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ».

في هذا المقطع يشيد الإمام (ع) بالصالحين بسبب أنهم يبسطون القسط والعدل؛ وينهون عن جور ويأمرون بالعدل ويعرّفهم وكأنهم مسافرون جعلوا الدنيا وراءهم وقد وصلوا إلى الآخرة وشاهدوا منازلها وقد رأوا الآخرة رأي العين وهم مازالوا في الدنيا. وهذا ما يؤكد أنهم جادّون في طي المسير من الدنيا نحو الآخرة. التعبير القائل «قطعوا الدنيا» مأخوذ من حقل السفر؛ أما الدلالة فيه فقد دلت على اجتياز الدنيا والوصول إلى الآخرة.

- سندرس فيما يلي الخطبة 114

إِنَّ الدُّنيا دَارُ فَنَاءٍ وعَنَاءٍ وغِيَرٍ وعِبَرٍ فَمِنَ اَلْفَنَاءِ أَنَّ اَلدَّهرَ مُوتِرٌ قَوْسَهُ لاَ تُخْطِئُ سِهَامُهُ ولاَ تُؤْسَى جِرَاحُهُ يَرْمِى اَلْحَىَّ بِالْمَوْتِ واَلصَّحِيحَ بِالسَّقَمِ واَلنَّاجِىَ بِالْعَطَبِ آكِلٌ لاَ يَشْبَعُ وشَارِبٌ لاَ يَنْقَعُ ومِنَ اَلْعَنَاءِ أَنَّ اَلْمَرْءَ يَجْمَعُ مَا لاَ يَأْكُلُ ويَبْنِى مَا لاَ يَسْكُنُ.

في هذه الخطبة، توجد تعابير مجازية تعتبر التجلي اللغوي للاستعارات المفاهيمية. وتشمل بعض هذه الاستعارات المفاهيمية ما يلي:

1. الدنيا دار فانية، 2- الدهر رام، 3- الموت سهم، 4- الدنيا كائن لا يشبع، 5- استعارة مركبة (complex metaphor) الحياة رحلة. هذه الخطبة وغيرها من الخطب تشير إلى وجود الاستعارات في نهج البلاغة. بسبب وظيفتها التفسيرية، تحظى الاستعارة بأهمية كبيرة في فهم المجالات المفاهيمية المعقدة والمجهولة. يتم تصور المجالات المجردة المفاهيمية، والبنى النظرية والمعتقدات

الميتافيزيقية وفهمها فقط عن طريق الاستعارة المفاهيمية. توفر الاستعارات المفاهيمية من خلال الربط بين الأفكار المفاهيمية الأكثر تجريداً والإدراك الحسي أساساً معرفياً بدنياً وجسدياً يخلق الاتساق والوحدة بين تجاربنا.

يعتمد مجال الدين اعتمادا كبيرا على التصور المجازي. وللاستعارة في هذا الخطاب وظيفة تفسيرية ومعرفية، لأن هذا المجال، بالإضافة إلى كونه مجردا جدا ويمكن الوصول إليه من التجربة الحسية البعيدة، فهو يحتوي على المفاهيم الأساسية لله، الروح، الحياة الأخروية، والقدرة على الاختيار الأخلاقي والتي طالما كانت أفكاراً ميتافيزيقية كبيرة وسامية، ولا توجد طريقة لفهمها دون تنظيمها في مجالات للتلقي الحسي. تساعد الاستعارات على تسهيل عدد من التجارب الجديدة التي قد لا يكون لها وصف كلامي. وهذا يبرر العلاقة المباشرة بين كمية الاستعارات والطبيعة المجردة للموضوع. في الواقع، إن حضور الاستعارات وعددها الكبير في الخطاب الديني يرجع إلى ضرورة وجودها في هذا الخطاب، وليس للخطاب الديني من خيار تجاه المفاهيم الخارجة عن إطار تجربته، سوى استخدام العبارات المجازية (بور إبراهيم، 2009م، 68).

وبما أن بعض مفاهيم العالم والآخرة تدخل ضمن مجال الخطاب الفلسفي والديني، فلا يمكن للمرء أن يتطرق إلى أُصلها ومبدئها دون تقديم هذه المفاهيم على شكل استعارة مفاهيمية وميدان ملموس. هذه الأنواع من المفاهيم ليست تجريبية. وبسبب الطبيعة السماوية للخطاب الديني في هذه الأمثلة، فسوف نواجه نوعا من الغموض المجازي، وهذا النوع من الاستعارة في مجال خطاب نهج البلاغة يؤدي إلى تفسيرات فريدة في إطار الدنيا والآخرة، ويتجاوز التعبيرات اللغوية الأخرى.

الإمام علي (ع) يقول في خطبة الغرّاء:

– (فَإِنَّ الدُّنْيَا رَنِقٌ مَشْرَبُهَا رَدِغٌ مَشْرَعُهَا يُونِقُ مَنْظَرُهَا ويُوبِقُ مَخْبَرُهَا غُرُورٌ حَائِلٌ وضَوْءٌ آفِلٌ وظِلٌّ زَائِلٌ وسِنَادٌ مَائِلٌ حَتَّى إِذَا أَنِسَ نَافِرُهَا واطْمَأَنَّ نَاكِرُهَا قَمَصَتْ بِأَرْجُلِهَا وقَنَصَتْ بِأَحْبُلِهَا وأَقْصَدَتْ بِأَسْهُمِهَا وأَعْلَقَتِ الْمَرْءَ أَوْهَاقَ الْمَنِيَّةِ قَائِدَةً لَهُ إِلَى ضَنْكِ الْمَضْجَعِ ووَحْشَةِ الْمَرْجِعِ ومُعَايَنَةِ الْمَحَلِّ وثَوَابِ الْعَمَلِ. وكَذَلِكَ الْخَلَفُ بِعَقْبِ السَّلَفِ لَا تُقْلِعُ الْمَنِيَّةُ اخْتِرَاماً ولَا يَرْعَوِي الْبَاقُونَ اجْتِرَاماً يَحْتَذُونَ مِثَالًا ويَمْضُونَ أَرْسَالًا إِلَى غَايَةِ الِانْتِهَاءِ وصَيُّورِ الْفَنَاءِ). (خطبه، 83)

في هذا الاستعارة يوجد تناظر بين المجالين المفاهيميين: الدنيا والحيوان البري، الدنيا والمرأة الجميلة غير المخلصة، والدنيا وتيار موحل وملوث. إن إبداع هذه الاستعارات هو في الارتباطات اللانهائية والمحتملة، على افتراض أن العالم حيوان بري، امرأة جميلة، وتيار موحل: الفناء والوحشية وعدم الوفاء والظلام ... إن كلمة الموت لوحدها لا يقترن بهذه العلاقات. تشبيه الدنيا بحيوان بري، وامرأة جميلة، وتيار موحل يروي لنا أشياء عن العالم لم نكن قادرين على تخيلها بدون مساعدة هذه الاستعارة. ويتابع الإمام علي (ع) قائلاً: "الدنيا قمصت بأرجلها"، وهذا هو إهمال الدنيا للإنسان ذاته والاستسلام للموت حيث تقمص الدنيا الإنسان بأرجلها عند الموت. في هذا النمط المجازي للدنيا، يتم تصورها على أنها حيوان لا يقهر ولا يمكن ترويضه. هذا النوع من سلوك الدنيا تجاه سكانها هو نوع من السلوك الخبيث الذي يخدع الناس بزينته. وطاعة الدنيا والاستسلام لجمالها على أساس الاستعارة (الدنيا امرأة جميلة وغير وفية) لا يقود الإنسان إلى وجهة مرغوبة، وسوف يمنعه من تحقيق الهدف النهائي في هذا السفر.

الاستعارة، تصوير بين المجالات

واستنادا إلى مبدأ المجال[1]، فلا يمكن دراسة معظم التعبيرات الاستعارية وحدها، والاستعارات المفاهيمية، بدورها، هي نتيجة للتصوير بين المجالين المفاهيميين للوجهة والمجال المفاهيمي للمصدر. في هذه الحالة، يتم تصور المجال المفاهيمي للوجهة في إطار المجال المفاهيمي للمصدر. وبدلا من ذلك، ينبغي اعتبارها تمثيلا للغة الاستعارات التصورية: تختلف الاستعارات المفاهيمية للارتباط المنهجي من حيث المجال والنطاق، واحدة منهما تمثل مجال الوجهة أو X، والأخرى مجال المنشأ أو Y. في هذه الحالة، يصور X على أنه Y، أي مجال خيالي، على سبيل المثال، يتم إدراك المجال X وفهمه من خلال مجال تجريبي، على سبيل المثال Y (بور ابراهيم، 2009، 60).

1 -model principale

ويحذر الإمام أنه علينا أن نستعد لهذه الرحلة، لأن جرس الرحيل قد قرع فلا تتعلق بهذه الدنيا، فعد وخذ أمتعتك لأن أمامك تلة صعبة وشاقة بنفسك، ومنازل مخيفة يجب أن تمر عبرها ... وللقيام بذلك عليك أن تحمل زاد التقوى.

- (وَبَادِرُوا الْمَوْتَ وَغَمَرَاتِهِ وَامْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ فَإِنَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةُ وَكَفَى بِذَلِكَ وَاعِظاً لِمَنْ عَقَلَ وَمُعْتَبَراً لِمَنْ جَهِلَ...) (خطبه، 190)
- (تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ- وَأَقِلُّوا الْعُرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا- وانْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ- فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَئُوداً ومَنَازِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً- لَا بُدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا والْوُقُوفِ عِنْدَهَا- . واعْلَمُوا أَنَّ مَلَاحِظَ الْمَنِيَّةِ نَحْوَكُمْ دَانِيَةٌ- وكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وقَدْ نَشِبَتْ فِيكُمْ- وقَدْ دَهَمَتْكُمْ فِيهَا مُفْظِعَاتُ الْأُمُورِ ومُعْضِلَاتُ الْمَحْذُورِ- . فَقَطِّعُوا عَلَائِقَ الدُّنْيَا واسْتَظْهِرُوا بِزَادِ التَّقْوَى) (خطبه، 204)
- ألا وإنَّ اليومَ المِضمَار وغداً السِباق، والسبقة الجَّنة والغايةُ النَّار (خطبه 52)

في هذا المثال، يتم تصوير مجال الحياة المعنوية في سياق المنافسة، والتصوير الاستعاري هو أن الحياة مسابقة. وهناك مجموعة من أوجه التشابه بين مجال المنشأ (المسابقة) ومجال الوجهة (الحياة). أداء الأعمال الصالحة في الحياة نقاط امتياز، الجنة جائزة والجحيم غرامة وعقاب.

ويحذر الإمام في مواضع أخرى في نهج البلاغة من الطبيعة العابرة للدنيا وإعراضها عن الإنسان مشيراً إلى أن إعراض الدنيا عن الإنسان يعني إقبال الآخرة عليه. لكل من الدنيا والآخرة أبناء فحاول أن تكون من أولاد الآخرة، لأنه في القيامة ينضم كل ولد إلى والدته. في كلام الإمام، مناسبة الاستعارة هي أن الميل إلى الأبوين من خصائص الأولاد وبغض النظر عن الفائدة والميل الطبيعي أو الرغبة في الفائدة فهناك فئة ترغب بالدنيا وأخرى بالآخرة وكل واحد يميل إلى وجهته. فأولاد الدنيا حريصون على الدنيا وأولاد الآخرة يرغبون بالآخرة وسعادتها. في هذه الخطبة تم تصوير الحياة المعنوية والحياة الدنيوية والآخرة في سياق مفهوم القرابة والإنسانية. يتم تصوير مجال الوجهة (الحياة الدنيا والآخرة) ضمن إطار المجال الاستعاري (الدنيا أم سيئة) و(الآخرة أم جيدة). إن التصوير الاستعاري (الدنيا أم سيئة) و(الآخرة أم جيدة) يشكل مجموعة من التناظرات بين وجود المنشأ (الأم السيئة والأم الجيدة) والوجهة (الحياة الدنيا والآخرة).

في هذه العينة، يتم تصوير مفهوم مجال التشابه والتلازم والانتماء في إطار علاقات القرابة. الاستعارة x بمثابة y، يصل المجال المجرد والمركب للوجهة x بالمجال الأكثر موضوعية للمنشأ y، والذي لديه بنية أبسط ويسمح بتصور أكثر حسية. في الواقع، تستخدم الاستعارة كجزء من هيكل مجال أكثر تنظيما وموضوعية للفهم والتحدث أكثر عن مجال أكثر تجريدا وأقل بناء. من خلال التصوير المجازي، يتم استدعاء مجالات المنشأ لتوفير هيكل لفهم المجالات المجردة. ووفقا لاستدلال معقول ومنطقي، يمكن الاستنتاج بأن العلاقة بين العنصرين x وy هي في اتجاه واحد، ويتم الانتقال الاستعاري في مسار المنشأ بشكل أكثر موضوعية وأكثر تجريبية نحو أغراض أكثر تجريداً. لذلك، بما أن المجال الاستعاري للمنشأ يجب أن يكون موضوعيا ومتاحا للتجربة الحسية، فإن المجال المجرد للدين لا يستخدم كمجال منشأ للاستعارات إلا قليلاً. الاستعارات المذكورة أعلاه تؤكد أيضا هذا الأمر. في الاستعارات أعلاه، فإن مفاهيم (التيار، الحيوان البري، المرأة الجميلة)، الزاد، والآباء، والسباقات، والجوائز المستخدمة كمجال لمنشأ الاستعارة، ترتبط بمفاهيم الحياة الدنيا، والخير، والآخرة، والجنة وجهنم والتي تشكل مجال وجهة هذه الاستعارات وهي أكثر موضوعية وبناءً.

حقل السكونة الدلالي

ومن المفاهيم المعتمدة في التعبير عن الدنيا والآخرة ووصفهما، استخدام الدلالات المتعلقة بالمنزل والسكن في هذا السياق، يمكننا إقامة العلاقة بين السكن والسفر، لأن السفر ما هو إلا الابتعاد عن السكن وطي بعض المنازل على الطريق.

عند توظيف مفاهيم السكونة في تعبير الإمام (ع) عن الدنيا والآخرة، قارن الدنيا بالآخرة واستخدم فن التشبيه والتمثيل لذمّ الدنيا والتحريض على الآخرة، يقول في ذلك في خطبة 209: «مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسِعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا وَأَنْتَ إِلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ وَبَلَى إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ وَتُطْلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ».

جاء تركيب «سعة هذه الدار» في هذه الفقرات إشارة مباشرة إلى الدنيا وفيما بعدها يشير الإمام إلى مفاهيم تدلّ ضمنياً على هذه الاستعارة؛ منها: «تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ» ومن البديهي أن هذه الأمور يقوم بها الإنسان في منزله. ففي هذه الفقرات أخذ الإمام الفاظ من حقل السكن واستفاد منها ليشيرَ إلى الدنيا كحقل المقصد.

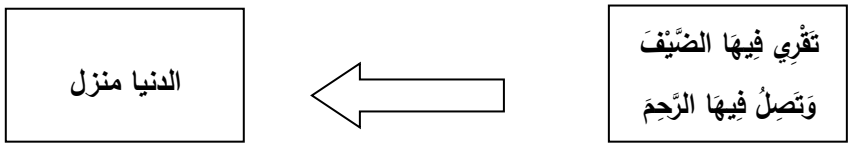

في خطبة 223 يتكلم الإمام (ع) عن الدنيا بقوله: «لَنِعْمَ دَارُ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَاراً ومَحَلُّ مَنْ لَمْ يُوَطِّنْهَا مَحَلًّا».

جاءت هنا الفاظ «دار، محل، يوطّن» من حقل السكن الدلالي لتكون مبدأ للتعبير عن مفهوم الدنيا المجرد كحقل مقصد.

في خطبة 113 يذم الإمام (ع) الدنيا عبر توظيف الاستعارة المعرفية وذلك بتصويرها وكأنها منزل من المنازل التي يسكن بها الإنسان في برهة من عمره: «وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا دَارُهَا هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا فَخَلَطَ حَلَالَهَا بِحَرَامِهَا وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا وَحَيَاتَهَا بِمَوْتِهَا وَحُلْوَهَا بِمُرِّهَا».

في هذا الجزء من الخطبة تكلم الإمام عن الدنيا عبر المفاهيم التي تخص السكن وهي: «المنزل، دار ودارها» وفي المقطع الأخير عبّر عنها بلفظتي «حلوها ومرّها» وهما استعارتان من حقل الطعام.

في خطبة 188 في معرض كلامه عن الأموات، يقول (ع): «كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّاراً وَكَأَنَّ الْآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَاراً أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ وَأَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ».

الاستعارة التي جاءت هنا هي: من قبيل التشبيه، فالإمام يشبّه الدنيا والآخرة بدارين تعجب الإنسان واحدة منهما ويرفض الأخرى.

يقول الإمام (ع) في كتاب رقم 31 ناصحاً ومحذّراً من الدنيا: «فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ».

كلمة «مثوَي» تدل على المنزل والسكن الذي يأنس فيه الإنسان (ابن منظور،لاتا: ذيل ثوي) وقد جاءت هنا استعارة للدنيا. كما أن الإمام وظّف في هذه التعبير استعارة أخري من حقل التجارة وقد أشار إلى ذلك بلفظة «بيع».

نتائج البحث:

تميزت المقاربة المعرفية *الاستعارة* بانفتاحها على علوم متعددة خاصة منها *اللسانيات*، ومن ثم دراستها لإشكالات جديدة ولعل هذا ما جعل التصور التجريبي التفاعلي *يعتبر الاستعارة* الأساس المبنين لنسقنا التصوري وكيفية فهمنا للعالم وما نعيشه من تجارب.

الاستعارة المفهومية لها حضور لافت في خطاب الدنيا والأخرة في نهج البلاغة وقد استخدمت هذا النوع من الاستعارة لتوضيح وتقديم المفاهيم المجردة حيث يتم تجسيد هذه المفاهيم من خلال المجالات المعروفة.

من خلال دراسة الاستعارات المفهومية في الدنيا والآخرة، يمكننا أن نستنتج كما يأتي:

إن المفاهيم العقلانية بما فيها؛ الحياة المادية، الآخرة، الموت، الأعمال الحسنة، البشر، الأعمال السيئة تتم تجسيدها من خلال تناظرها مع مجالات المتجسدة كـ الممر، المقصد النهائي، الأمتعة، المسافر، حواجز السفر.

توجد في حقل السفر الدلالي ألفاظاً كـ «المنزل، الخروج، الوصول، السَفر، الطريق، الطي، القصد و...» كمبدأ للاستعارة والتي تبتني على الفكرة القائلة أن «الدنيا منزل سفر والمقصد هو الآخرة».

إن الإمام على (ع) عبّر عن هذه الفكرة عبر استخدام المفاهيم المتعلقة بالسفر لأن هذه الدنيا منزلاً للانتقال وقطع المسير وفي هذا السفر لا ينظر إلى الدنيا بنظرة ايجابية إلا إذا كانت محطةً للاستزادة لسفر الآخرة. ومن المفاهيم المتعلقة بالسفر «المنزل» وقد شبه الإمام الدنيا بمنزل مؤقت لا مناص من الرحيل عنه.

وبعد مقارنة بين مفهومَي الدنيا والآخرة، يبدو أن للدنيا النصيب الأوفر في الاستعارات التي استخدمها الامام على (ع) والسبب في ذلك هو أن نصائح الإمام غالباً ما كانت في معرض التزهيد عن الدنيا وذمها كما وصفها بخصائص سلبية لتجنُّبها.

المصادر

- ابن منظور، محمد بن مكرم (بی تا)، لسان العرب، تحقيق عبدالله علي الكبير، بيروت: دار صادر.
- خاقانی، محمد ؛ قربان‌خانی، مرضیه، «استعاره از منظر بلاغت عربی وزبانشناسی شناختی»، مجله انجمن ایرانی زبان وادبیات عربی، شماره 35، تابستان، صص 101-122.
- دشتی، محمد (1383): ترجمه نهج البلاغه، چاپ بیست وچهارم، قم: مؤسسه فرهنگی تحقیقاتی امیرالمؤمنین.
- صفوي، كورش، (1382). بحثي دربارەی طرحوارەهای تصويري از ديدگاه معني شناسان شناختي، فصلنامه فرهنگستان، شماره 21.
- فياضي، مريم سادات وديگران، (1387). خاستگاه استعاري افعال حسي چند معنا در زبان فارسي از منظر معني شناسان شناختي، نشريه ادب پژوهي، شماره 6.
- لايكوف، جرج وجونسون، مارك (2009): الاستعارات التي نحيا بها، الطبعة الثانية، دارالبيضاء: دار توبقال للنشر.
- نقوي، حسين (مترجم)، (1386). استعاره وايجاد معاني جديد در زبان اثر پل ريكور، نشريه معرفت، سال 16 ، شماره 20 .
- هوشنگی، حسین ؛ سیفی پَرگو، محمود (1388): «استعارەهای مفهومی در قرآن از منظر زبان‌شناسی شناختی»، پژوهشنامه علوم ومعارف قرآن کریم، شماره 3، تابستان.
- يار محمدي، لطف الله، (1383). «تناسب كاربرد روش های كمي وكيفي در تحليل گفتمان ها»، مجموعه مقاله هاي پنجمين كنفرانس زبان شناسی، تهران: آرويج.
- يارمحمدی، لطف الله، (1372): «نظری نو به تعبیرات استعاری ومسائل مربوط به ترجمەی آنها»، شانزده مقاله در زبان شناسی کاربردی وترجمه، شیراز: نشر نوید.
- **المصادر الأجنبية**

- Evans, V (2007), A Glossary of Cognitive Linguistics. Edinburgh: EUP.
- Evans, V, & Green, M (2006), Cognitive Linguistics: An Introduction. Edinburgh: EUP.
- Shapiro, L (2011), Embodied Cognition, London & New York: Routledge.
- Taylor, J. R (1995), Linguistic Categorization: Prototypes in Linguistic Theory (2nded), Oxford: Clarendon Press.
- Tendahl, M (2009), A Hybrid Theory of Metaphor: Relevance Theory and Cognitive Linguistics. New York: Palgrave Macmillan.